حول تعليم الخطيب لكوينتليان

بقلم
الدكتور ابراهيم سكر

يعتبر كوينتليان أحد جماعة الأدباء البارزين الذين جعلوا أسبانيا ؛ طوال القرن الأول الميلادى — ذات شهرة خاصة كمركز من مراكز الحضارة الرومانية له أهمية كبرى فى خلق نشاط أدبى . من بين هذه الجماعة سنكا Seneca الأب والإبن ، وكتاب الشعر لوكان Lucan ومارشيال Martial وكتاب النثر بومبونيوس ميلا Pomponius Mela وكولوميلا Columella ، وعلى رأس هؤلاء جميعاً كوينتليان Quitilian ، أول أستاذ للخطابة احتل كرسى الأستاذية ، الذى أنشأته الامبراطورية الرومانية ومولته من خزانتها ، وأعظم مرجع فى اللاتينية للتربية والتعليم .

ولد ماركوس فابيوس كوينتليانوس Marcus Fabius Quintilianus فى بلـــدة كالاجوريس Calagurris من أعمال أسبانيا فى أعالى نهر إبرو Ebro ، حوالى عام ٣٥ م . وقد تلقى تعليمه فى روما ، حيث كان والده يعمل فى الغالب كمدرس للخطابة ، وذلك على يد أعظم أساتذة ذلك العصر ، من بينهم دوميتيوس أفير Domitius Afer . ولا بد أن يكون كوينتليان قد رجع إلى موطنه الأصلى بمجرد أن انتهى من إتمام دراسته ، لأننا نسمع عن عودته مرة ثانية إلى روما عام ٦٨ م كتابع من أتباع الامبراطور جالبا Galba . وقد ظل فى روما منذ ذلك الحين حتى نهاية حياته . وبعد عودته إلى روما ببضع سنوات ، وذلك فى الفترة المبكرة من حكم الامبراطور ڤيسباسيان Vespasian ، أصبح أول أستاذ رسمى للخطابة ، وكان يتسلم راتب هذه الوظيفة من خزانة الامبراطورية ، وكان هذا المرتب يعادل ما يساوى حوالى ٩٠٠ جنيه سنوياً ؛ وقد ظل فى هذا المركز تحت رعاية ثلاثة من الأباطرة هم ڤيسباسيان وتيتوس Titus ودوميتيان Domitian . وفى نفس الوقت كان يعمل كمحام أمام المحاكم الرومانية . وهذا النشاط المزدوج فى المحاماة والتدريس استمر حوالى عشرين عاماً ، انقطع بعدها عن هذا النشاط ، وكرس كل وقته لتأليف عمله الخالد « حول تعليم الخطيب » Institutio Oratoria ، الذى نشر حوالى عام ٩٣ م ، وقد وصلنا كاملا . لم يكن هذا الكتاب أول محاولة لكوينتليان فى ميدان النقد والأدب ، فقبل البدء فى كتابة هذا العمل بحوالى ثلاث سنوات ، كان كوينتليان قد نشر مقالة بعنوان « حول أســباب تدهور الخطابة » De causis

Corruptæ eloquentiæ (ك . تـ خ . م ، ٣)[1]، وهى مفقودة ؛ كما نشر فى شبابه بعض مرافعاته (ك . تـ خ ، ٧ ، ٢ ، ٢٤) وهى مفقودة أيضاً .

لقد كان كوينتليان رجلا ذا حيثية فى الامبراطورية الرومانية ، وقد كرمه الامبراطور دوميتيان ، بعد اعتزاله التدريس والمحاماة ، بأن منحه رتبة القنصل ، وعينه مشرفاً على تربية وريثيه ، وهما ولدا ابن أخيه فلافيوس كليمينس Flavius Clemens . ومع ذلك لم تكن حياة كوينتليان الخاصة تخلو من المتاعب . فقد أثقلت الأقدار كاهله بالنكبات أكثر من مرة ، فقد اختطف منه الموت زوجته أولا وهى لا تزال فى ريعان الشباب، ثم ولديه من بعدها الواحد تلو الآخر، تاركين إياه يمضى سنواته الأخيرة فى وحدة ممضة . ونحن لا نعرف بالضبط التاريخ المحدد لوفاة كوينتليان، ولكن المحتمل أنه لم يمتد به الأجل طويلا إلى ما بعد نهاية القرن الأول الميلادى .

ومن ثم فإن « حول تعليم الخطيب » ثمرة إنتاج أستاذ ماهر ، تلقى تعليمه على يد أشهر أساتذة العصر، واشتغل بالمحاماة فى محاكم روما ، ونال إعجاب أكثر من امبراطور . ولذلك فنحن نتوقع الكثير من رجل مؤهل كل هذا التأهيل للعمل الذى وضع فيه كل خبرته العملية وأفكاره الناضجة عن فن التربية والتعليم . لقد كان هذا الكتاب « حول تعليم الخطيب » ، كما يقول كوينتليان نفسه ، ثمرة مجهود سنتين من العمل الشاق ؛ ولم تكن هاتان السنتان مخصصتين للكتابة بقدر البحث والقراءة ، التى يتطلبها مثل هذا العمل الضخم ، ومع ذلك فلم يكن كوينتليان راضياً كل الرضا ، ويبدو أنه كان ينوى تأجيل النشر ، عملا بنصيحة هوراس للكتاب ألا ينشروا أعمالهم إلا بعد العام التاسع من تأليفها حتى يتم صنقلها ؛ ولكن ناشره المدعو تريفو Trypho سمع عن العمل ، فما زال يلح عليه ويؤكد له ضرورة نشره لشدة الحاجة إلى مثل هذا العمل ، حتى استسلم كوينتليان فى النهاية وسمح له بنشره . (ك . تـ خ . رسالة إلى تريفو ؛ ١ . م ، ١ .) ولكن يبدو أن هناك سبباً آخر اضطر كوينتليان أن يسارع بنشر كتابه ؛ فقد ظهر باسمه فى السوق كتابان عن فن الخطابة ، ولم يكن هو الناشر أو المؤلف الفعلى لهما ؛ ولم يكن هذان الكتابان سوى بعض محاضرات ألقاها كوينتليان على طلبته الشبان، الذين قاموا بنشرهما باسم أستاذهم، بدافع من التحمس والولاء له ، وفى نفس الوقت عملا على ترويج الكتابين (١ . م ، ٧) . ويبدو أن هذين الكتابين هما اللذان لا يزالان يحملان اسمه خطأ فى بعض المخطوطات ، الأول بعنوان Declamationes Maiores والثانى بعنوان Declamationes Minores . ومن تعليق كوينتليان على نشر هذين الكتابين ، يبدو أنه لم يكن راضياً عن نسب بعض أجزائها إليه ، فهو أمر معروف أنه حتى أحسن الطلبة كثيراً ما يكتبون فى كراسات محاضراتهم أموراً لا يقرها الأستاذ ؛ ومن ثم فقد قرر أنه ما دامت الكتب تنشر باسمه ، فمن الأفضل له أن يكتبها بنفسه .

إن هذا العمـــل Institutio Oratoria هو الكتاب المنظم الوحيد ، الذى يلخص ويناقش كل النظريات والمشاكل التعليمية ، التى واجهت المهتمين بالتربية والتعليم أثناء القرن الأول الميلادى وما قبله . وكان الغرض منه فيما يبدو محاولة تقريب وجهات النظر بين الأفكار والنظريات المتضاربة ، التى أثارها السابقون عليه . إن عنوان الكتاب أضيق من محتوياته، فان الترجمة الحرفية للعنوان هى « حول تعليم الخطيب » أو « حول تعليم الخطابة » ، ولكن الكتاب فى الواقع أوسع وأعمق بكثير مما يدل عليه العنوان . فإنه ينفذ إلى جذور كثير من المشاكل الأساسية فى التربية والتعليم،

---

(١) ك = كوينتليان ، تـ خ = حول تعليم الخطيب م = مقدمة .

التى لم تواجه الرومان فحسب ، بل تواجهنا نحن الآن أيضاً . وهذا ما يجعل عمل كوينتليان يتميز عن بقية الأعمال العادية الأخرى التى تحمل عنوان «فن الخطابة» "Ars Rhetorica" أو « حول فن الكلام » "De Arte Dicendi" : وقد وضح كوينتليان بنفسه لماذا اختار هذه الطريقة غير العادية فقال : « إن كل الذين كتبوا فى فن الخطابة يبدأون وهم يفترضون أن قارئيهم يعرفون كل فروع التعليم الأخرى معرفة جيدة ، ويزعمون أن واجبهم هو إعطاء اللمسات الأخيرة للبلاغة فحسب . ربما كانوا يزدرون المراحل الأولى للتعليم باعتبارها أقل أهمية ؛ أو ربما اعتبروها خارج عملهم الأساسى ، بحجة أن واجبات كل مرحلة من مراحل التعليم المختلفة قد تحددت وتميزت عن الأخرى ؛ أو ربما ، وهذا يبدو أكثر احتمالا ، لم يروا مجالا كبيراً للشهرة فى معالجة موضوع ، رغم أهميته ، بعيد كل البعد عن استعراض عضلاتهم فى البلاغة ؛ كما هو الحال فى العمارة ، يعجب الناس بالمظهر الخارجى ، ويغفلون عن الأساس . ولكنى أعتبر كل شىء ضرورى لتدريب الخطيب ليس غريباً ولا دخيلا على فن الخطابة . إن المرء لايستطيع أن يصل إلى القمة فى أى موضوع دون أن يبدأ من نقطة ما . وعلى ذلك، فانى لن أرفض معالجة أقل الأمور أهمية ، تلك الأمور التى بدونها لا يمكن للأمور ذات الأهمية الكبرى أن تجد لها مكاناً ؛ بل إنى سأبدأ عملى بتعليم الخطيب ، كما لو كان قد عهد به إلىّ لأقوم على تنشئته منذ طفولته » .

ولكن يجب أن نضع فى اعتبارنا منذ البداية ، أنه لا النظريات ولا المقالات فى أى علم أو فن لها أية قيمة ، ما لم يدعمها الاستعداد الفطرى . ومن ثم فإن نظرية كوينتليان فى التعليم تعتمد أساساً على ثلاثة عناصر : الاستعداد الفطرى ، التثقيف ، والتدريب العملى (ك . تـ خ ، ١ : م ٢٦ — ٢٧) وكتابه « حول تعليم الخطيب » قد خصص كلية للتثقيف مع بعض الإشارات إلى التدريب العملى :

لقد وضع الكاتب بنفسه خطة العمل فى مؤلفه ، وقسمه إلى اثنى عشر كتاباً . (ك . تـ خ ، ١ . م ٢١ — ٢٢) الكتاب الأول يتناول موضوع التعليم قبل مدرسة الخطابة ، ويبدأ بمرحلة التعليم منذ الطفولة ثم التعليم الأولى ، أى تعليم المبادىء الأولى فى الكتابة والقراءة ومبادىء الحساب وذلك عند مدرس خاص بذلك يسمى "litterator" ، ثم التعليم المتوسط عند مدرس الأدب المسمى "grammaticus" . والكتاب الثانى يتناول معالجة الموضوعات التى تدرس فى مرحلة التعليم العالى والتى يقوم بتدريسها مدرس الخطابة ، وهى الموضوعات المتعلقة بموضوع الخطابة نفسها : وهذا يؤدى بنا إلى تعريف الخطابة ، التى تنقسم بالضرورة إلى : ١ — اختيار الموضوع المناسب ويسمى "inventio" ، ٢ — استخدام الأسلوب المناسب ويسمى "elocutio" . الخمسة كتب التالية (من ٣ إلى ٧) مخصصة لاختيار الموضوع المناسب أى الـ "inventio" والموضوع المتصل به وهو ما يسمى "dispositio" أى ترتيب عناصر هذا الموضوع المختار : والأربعة كتب التالية (من ٨ إلى ١١) مخصصة لموضوع استخدام الأسلوب المناسب أى الـ "elocutio" والموضوعين المتصلين به وهما تذكر الكلام memoria وطريقه الإلقاء pronuntiatio : والكتاب الثانى عشر والأخير مخصص للكلام عن شخص الخطيب الكامل ، والمبادىء التى يجب أن يتمثل بها ، ونوع القضايا التى يترافع فيها وطريقة إعدادها ، وغير ذلك من الموضوعات المتصلة بالخطيب نفسه :

وللكتاب الأول أهمية خاصة عند الدارسين المحدثين ، إذ تظهر فيه عظمة كوينتليان كمعلم ؛

فقد تعرض فى هذا الكتاب لكل المشاكل التى كانت تواجه رجال التعليم فى عصره . ويلى الكتاب الأول فى الأهمية الكتاب الثانى ، الذى يعرض فيه طرق ووسائل تعليم الخطابة ؛ والكتاب العاشر الذى يعطينا فيه بياناً بالمؤلفين الجديرين بالدراسة ، مع إصدار حكم نقدى على كل منهم ، وقد أصبحت هـذه الأحكام شائعة مشهورة ؛ ثم الكتاب الثانى عشر ، الذى يعرض فيه وجهة نظره فى الخطيب الكامل .

لقد بدأ كوينتليان كتابه الأول بالتعبير عن ثقته التامة بالعقل الإنسانى وبقيمة التعليم فى العمل على ترقية هذا العقل . إنه يرفض الزعم القائل بأن فئة قليلة من الناس هى التى منحت القدرة على فهم واستيعاب ما يلقى إليها ، وبأن معظم الناس ، لغباء عقولهم ، يضيعون جهدهم ووقتهم فى محاولة الدراسة . ومن رأيه أن الأغلبية الساحقة من الناس على درجة كافية من الذكاء لتقبل التعليم بسرعة ، « فإن التعقل والتعليم » ، كما يقول كوينتليان ، « طبيعة بالنسبة للإنسان ، كالطيران بالنسبة للطيور ، والجرى بالنسبة للخيل » . فإذا فشل طفل ما فى تحقيق هدفه ، فمن الواضح أن هذا لا يرجع إلى نقص إمكانياته الطبيعية ، وإنما يرجع إلى عدم رعايته الرعاية الحقة . وليس معنى هذا أن كوينتليان يجهل اختلاف الامكانيات الطبيعية بين الأطفال ، بالعكس إنه يعترف بها ويقرر أنها ستؤدى إلى نتائج مختلفة ، ولكن الذى ينكره أشد الإنكار هو إمكان وجود أى شخص لا يستفيد شيئاً ما من الدراسة (ك. ت خ ١ ، ١ ، ١ — ٣) . وهذا رأى فريد فى حكمته ، فكم من تلميذ بطئ الفهم لا أمل فيه قد تغير وتحول بفضل معونة وتشجيع مدرس ماهر ، وكم من تلميذ مجتهد يبشر بمستقبل مزهر قد فشل فى تنمية مواهبـه نتيجة لخطأ فى وسائل التدريس : ولهذا فإن كوينتليان ينصح الآباء بضرورة العناية بأطفالهم بمجرد ولادتهم :

وعلى ذلك ، فان كوينتليان يبدأ من البداية . فهو أولا يؤكد ضرورة الاهتمام بحسن البداية ، ويعطينا تفسيراً نفسياً لهذه الأهمية ، فإن تشبث الانطباعات المبكرة والعادات السيئة وعدم سهولة تغييرها أمر معروف . (١ ، ١ ، ٥) ولذلك فإنه يصر على أن تكون المربيات والخدم والأطفال ، الذين سيكونون فى معية الطفل أثناء فترة تربيتـه الأولى ، ذوى أخلاق حميدة ويحسنون النطق والكلام ، وإلا امتلأ عقل الطفل من البداية بالتافه من الأمور ، فهم أول من يسمع الطفل ، وكلامهم أول شئ يحاول محاكاته (١ ، ١ ، ٤ — ٥) .

إن رأى كوينتيـان فيما يتعلق بأثر الوالدين المتعلمين على تربية أطفالهم لهو رأى عصرى . فليس الأب وحده هو الذى يساعد على تقدم أطفاله ؛ بل الأم أيضاً لها دورها وأهميتها . « فإن كورنيليا Cornelia مثلا » ، كما يقول كوينتليان ، « وهى أم الأخوين جراكوس Gracchi لها فضل كبير فى فصاحة ولدهـا » (١ ، ١ ، ٦) والوالدان غير المتعلمين أيضاً عليهما ألا يدخرا وسعا فى سبيل رعاية أطفالهما (١ ، ١ ، ٧) . وهناك شخص آخر له أهمية كبرى فى فترة حياة الطفل المبكرة ، وهو ما يسمى بالـ paedagogus ، وكان هذا عبداً يصحب الطفل فى ذهابه وعودته من المدرسة ومراقبة سلوكه وتصرفاته ، ولم يكن من واجبه تعليم الطفل إلا بعض المبادئ الأولى أحيانا . وبالإضافة إلى ضرورة أن يكون هذا الـ paedagogus حسن السير والسلوك حتى لا يكون ذا تأثير سئ على أخلاق الطفل ، يرى كوينتليان ضرورة أن يكون على درجة كبيرة من التعليم ، أو فليعرف تمام المعرفة أنه ليس بمدرس بالمرة ، فلا يلقن الطفل أى تعاليم حمقاء ؛ فليس أضر بالعلم من انصاف المتعلمين (١ ، ١ ، ٨) وإذا كان الوالدان غـير متعلمين ، وإذا لم يتمكنا من العثور على مربية مثالية

أو paedagogus ممتاز ، وجب عليهم أن يضعوا بجانب الطفل أى شخص متعلم ، ليصحح له فى الحال أى تعبيرات خاطئة يمكن أن يكون قد سمعها ممن حوله ، وذلك قبل أن تصبح عادة يصعب تغييرها (١ ، ١ ، ١١) بالاختصار يجب أن يوجه الطفل من البداية توجيها حسناً من الناحية الخلقية والعلمية .

لقد حدد بعض النقاد سن السابعة لتكون السن التى يبدأ فيها الطفل تعليمه ، باعتبارها أقل سن يمكن أن يبدأ منها فهم ما يلقى إليه من معلومات وتحمل مشقة التعليم . ولكن كوينتليان يرى أنه لاينبغى أن يضيع أى جزء من حياة الطفل دون تعليم ، خاصة إذا علمنا أن المبادئ الأولى للتعليم تعتمد أساساً على الذاكرة ، وهى أقوى ما تكون لدى الطفل فى سنى حياته الأولى . وإذا كان الطفل فى هذه السن المبكرة ، أى قبل السابعة ، قادراً على تقبل المبادئ الأخلاقية ، فلماذا لا يقدر على تقبل المبادئ التعليمية ؟ حقاً إن الطفل لن يتقدم كثيراً قبل سن السابعة ، ومع ذلك لاينبغى أن نستهين بأى فائدة يمكن أن يحصل عليها الطفل قبل هذه السن مهما ، كانت هذه الفائدة ضئيله ، فإن هذه المبادئ الأولية ستعوّد الطفل القدرة على تحمل أمور أكثر مشقة فى حياته المقبلة. وعلى أية حال فإن الطفل فى حاجة إلى أن يعمل شيئاً ما بمجرد أن يستطيع النطق والكلام ، فأى شئ أفضل له من أن يعمل ما يمكن الاستفادة منه فيما بعد ؟ (١، ١، ١٥ — ١٩)

ومع ذلك لم يكن كوينتليان غافلا عن إدراك الاختلاف بين قدرات الطفل فى مراحل عمره ، على العكس فقد كان ينصح بألا يرغم الطفل على التعليم ، بل يجب أن نبذل غاية جهدنا فى جعل الدرس على شكل تسلية ، وألا نضغط على الطفل فى هذه السنوات المبكرة ، خشية أن يكره التعليم ، وهو لم يعرف بعد قيمته . كما أنه يرينا كيف نجعل التعليم أمراً محبوباً لدى الأطفال . « اسأل الطفل ثم امتدح إجابته ، لا تجعله يشعر بالارتياح لأنه يجهل شيئاً ما ؛ وفى بعض الأحيان ، عندما يرفض أن يتعلم ، اجعل طفلا آخر يتعلم أمامه لتثير حماسه ؛ وأحياناً أخرى اشركه فى منافسة واجعله يعتقد أنه متفوق ، شجعه دائماً على بذل كل مجهود ، وذلك بمنحه بعض المكافآت التى يحبها الأطفال فى مثل هذه العمر » (١، ١، ٢٠) . كما يمتدح كوينتليان أيضاً الطريقة التى كانت شائعة فى عصره لاستمالة الأطفال للتعليم ، وهى إعطاؤهم حروفاً من العاج يلعبون بها ، أو استعمال أى شئ آخر يبتهج الطفل فى هذه السن المبكرة بلمسه أو رؤيته أو سماعه » (١، ١، ٢٦) . ومن الواضح أن كوينتليان قد لخص فى هذه العبارة كل الوسائل التى نطلق عليها اليوم اسم « وسائل الإيضاح السمعية والبصرية » .

يصر كوينتليان أيضاً على أن هذه المبادىء يجب أن يتعلمها الطفل على يد أمهر المدرسين ؛ والمدرس الذى يرفض أن يدرس هذه المبادىء الأولية لا يستحق لقب مدرس على الإطلاق . إن المدرس الماهر بحق هو الذى يستطيع أن يدرّس هذه المبادىء تدريساً صحيحاً (٢، ٣، ٥) . يقول كوينتليان « أكان أرسطو ، أعظم فلاسفة عصره ، يرضى بأن يقوم بالتدريس للإسكندر الأكبر فى طفولته ، لو لم يكن يعتقد أن هذه المبادىء الأولى إنما تدرس تدريساً سليما على يد أمهر المدرسين ، وأن لها تأثيراً كبيراً على كل مراحل التعليم ؟ » (١ ، ١ ، ٢٣) وبالإضافة إلى المؤهلات العلمية ، يجب أن يكون المدرس محمود السيرة حسن الأخلاق (٢ ، ٢ ، ١) . وليست هذه هى الإشارة الوحيدة عن المدرس فى عمل كوينتليان ، ولكنه يعطينا صورة رائعة للمدرس المثالى الجديد بلقب مدرس فيقول : (٢ ، ٢ ، ٤ — ٨) « ينبغى على المدرس أولا وقبل

كل شيء أن يُكنّ لتلاميذه كل المشاعر الأبوية ، وأن يعتبر نفسه فى منزلة من عهدوا إليه بتربية أطفالهم. لا ينبغى أن يكون متناهياً فى القسوة ولا رقيقاً كل الرقة ، خشية أن يكرهه تلاميذه لقسوته الزائدة أو يمتهنونه لرقته المفرطة . وليتحدث من حين لآخر عن كل ما هو شريف نبيل ، فبقدر ما يكثر من تقديم النصائح الحسنة لتلاميذه ، بقدر ما تقل مرات معاقبته لهم . ينبغى ألا يكون حاد الطبع ، ولكن لا ينبغى أن يغض الطرف عن تصحيح ما ينبغى تصحيحه . ينبغى أن يكون بسيطاً فى شرحه لدروسه ، قادراً على تحمل مشقة العمل . يجب أن يكون مستعداً لأن يجيب على كل من يسأله ، وأن يسأل كل من يجلس صامتاً . عند ثنائه على تمرينات تلاميذه، يجب ألا يكون شحيحاً ولا مفرطاً ، ففى الحالة الأولى سيكرهون العمل ، وفى الحالة الثانية سيملؤهم الغرور . وعند تصحيحه لأخطائهم ، يجب ألا يكون فظاً ، وأهم من هذا ، ألا يسخر منهم، فإن بعض المدرسين ينتقدون تلاميذهم بطريقة يبدو منها وكأنهم يكرهونهم ، وهذا يعوق كثيراً من التلاميذ عن السير فى خطة الدراسة المقررة . وأخيراً يجب أن يقول لتلاميذه كل يوم شيئاً ما يحملونه معهم ؛ فبالرغم من أنه أثناء دروس المطالعة ربما يشير إلى كثير من النماذج المثالية الجديرة بالمحاكاة ، إلا أن الصوت الحى يمد العقل بالغذاء الأكمل ، وبخاصة صوت المدرس الذى يحبه ويحترمه تلاميذه ، الذين أحسن تهذيبهم . فنحن على استعداد دائماً لأن نحاكى من نحب » .

وعندما ينمو الطفل بعض الشيء ، ويأتى الوقت ليترك ذيل أمه أو مربيته ، ليعد نفسه لنوع من الدراسة أكثر جدية ، عندئذ تنهض مشكلة من أهم المشاكل وهى : هل من الأفضل أن يتلقى الطفل تعليما خاصاً بالمنزل ، أو يذهب إلى المدرسة العامة ؟ يخبرنا كوينتليان أن هناك بعض الناس الذين يرفضون أن يذهب أبناؤهم إلى المدارس العامة ، وحجتهم فى ذلك أمران ، الأول أن المدارس تستقبل عدداً كبيراً من التلاميذ مختلفى المشارب والأهواء ، ومن ثم وجود جو فاسد بالمدرسة أمر محتمل جداً ، وقد يؤثر ذلك على أخلاق أطفالهم بمرافقتهم لبعض هؤلاء الزملاء الأشرار ؛ والثانى أن المدرس الخاص يعطى عناية لتلميذه أكثر مما يعطيها مدرس المدرسة ، الذى يضطر إلى توزيع مجهوده على جميع أفراد فصله (١ ، ٢ ، ١ — ٢) . ولكن كوينتليان، بنظرته الثاقبة، يدحض هاتين الحجتين ، ويشرح لنا سبب تفضيله للمدارس العامة . فهو أولا يعترف أن المدارس يمكن أن يكون لها مساوئها ، ولكن ألا يمكن أن يكون جو المنزل فاسداً أيضاً ؟ أليس من المحتمل أن يكون المدرس الخاص سئ الخلق ؟ وهناك طبعاً خطورة فى مخالطة الطفل للعبيد بالمنزل ، وهم كما نعلم على درجة كبيرة من فساد الخلق ، وهذه الخطورة أشد بكثير من مخالطة زملائه بالمدرسة مهما بلغ بهم سوء الخلق . إن الأطفال لا يمتصون الأخلاق السيئة من المدارس ، ولكنهم يحملونها معهم إليها مما يرون ويسمعون بالمنزل . (١ ، ٢ ، ٤) وهنا ينتهز كوينتليان الفرصة ليهاجم جو المنزل الذى قد يفسد أخلاق الأطفال ، فيقول : « إننا نفسد أخلاق أطفالنا بأنفسنا . نفسد طفولتهم بالحياة الناعمة التى يحيونها . فتلك التربية المفرطة فى الرقة التى نسميها ولعا وهياما بهم تضعف قوتهم العقلية والجسدية . فأى رفاهية سوف لا يرغب المرء ، عندما يصبح رجلا ، وقد كان يزحف على الأرجوان فى طفولته ؟ إنه يعرف معنى الطهى ، ويصيح من أجل المحار ، قبل أن يحسن نطق كلماته الأولى . إننا ندربهم على الرقص قبل أن نمرنهم على الكلام السليم . إنهم ينشأون مدللين فى مقاعد خاصة يحملها الخدم ، وإذا لمسوا الأرض تعلقوا بأيدى الأتباع ، التى تمتد لمساعدتهم من كل

جانب . إننا نسر ونبتهج عندما يقولون شيئاً ما غير لائق ، ونبتسم لهم ونقبلهم ، عندما نسمعهم يرددون ألفاظاً ، لا يمكن احتمالها حتى ولا من بعض الشبان الأجانب المخنثين . وليس هذا منهم بعجيب ، فقد تعلموه منا ، إذ سمعوا منا مثل هذه الألفاظ . إنهم يرون محظياتنا ومن نعشق من الصبية ، وكل حفلة عشاء تجلجل بالأغانى الخليعة ، وتعرض أمام أعينهم كثيراً من الأشياء التى يخجل المرء من ذكرها . ومن مثل هذه الأمور تنشأ العادة، والعادة فى وقت ما تصبح طبيعة ثانية . إن الأطفال المساكين يتعلمون هذه الرذائل ، قبل أن يعرفوا أنها رذائل ، ومن ثم يصبحون مخنثين مرفهين . » (١ ، ٢ ، ٦ — ٨) قد يرى البعض مبالغة فيما قال كوينتليان ، ولكنه يصف مايراه رأى العين وهناك بعض الشواهد الأخرى التى تؤيد قوله : (سنكا ، رسائل ، ١٦٠ ، ٩٤ ، ٥٤ ، ٩٥ ، ١١ ، تاكينوس ، محاورة حول الخطباء ، ٢٩) . بل إن مثل هذه التصرفات قد نجدها أيضا بين بعض العائلات فى أيامنا هذه . وعلى ذلك فإن البيت هو الذى ينبغى تقويمه ، وإذا تم ذلك ، فان جو المدرسة سيكون جواً صالحاً . وعلاج مثل هذه المخاوف أمر سهل ميسور ، وخاصة إذا كانت طبيعة الطفل تتجه نحو الفضيلة ، فمن الممكن أن يكرس الوالدان عنايتهما لرعاية أطفالها ، وذلك باختيار وسيلة حازمة لتربيتهم كما يمكن فى نفس الوقت أن يلازمهم صديق ما كريم الأخلاق له تأثير عليهم ، أو معتق مخلص ، فهذه الرعاية وتلك الرقابة الدائمة يمكن أن يقوّما أخلاق الأطفال وتبعدهم عن كل ما يبعث الخوف فى نفوس والديهم (١ ، ٢ ، ٥) . هذا هو رأى كوينتليان فى الموضوع ، الذى لا يزال يشغل أذهان رجال التربية والتعليم فى هذه الأيام ، أعنى أثر العائلة على الطفل ، وقيمة التعاون الذى يجب أن يقدمه المنزل للمدرسة .

أما الاعتراض الثانى الموجه ضد المدارس ، وهو أن مدرساً واحداً يستطيع أن يمنح تلميذاً واحداً رعاية أكثر ، فقد رد عليه كوينتليان بالإجابة المتوقعة من مدرس ، وهى أن معظم مواد التعليم هى بطبيعتها يمكن توصيلها فى الحال إلى الجميع وبنفس المجهود الصوتى ؛ فإن صوت المدرس ليس وليمة من الطعام لا تكفى إلا لعدد معين من الناس ، ولكنه كالشمس التى توزع ضوءها وحرارتها على الجميع . فليس هناك ما يمنع التلميذ إذن ، مهما تكن طبيعته ، من أن يكون هو هو نفسه مع المدرس فى المدرسة (١ ، ٢ ، ٩ ، ١٣ — ١٤) . وهنا أيضاً يمدنا كوينتليان ببعض الأسباب النفسية التى تجعل المدارس أفضل للمدرس والتلميذ من التدريس الخاص . إن جميع المدرسين الأكفاء يشعرون بالسعادة عندما يحاضرون فى عدد كبير من التلاميذ، أما المدرسون الأدنى مرتبة، فإنهم ، لشعورهم بالنقص ، يقبلون التدريس لتلميذ واحد ، وحتى على فرض أن بعض الوالدين استطاعوا أن يجدوا لتعليم أطفالهم بالمنزل أمهر المدرسين وأوسعهم علماً ، فهل سيضيع مثل هؤلاء المدرسين كل وقتهم مع تلميذ واحد ؟ وهل يمكنهم أن يبذلوا من روحهم ومجهودهم فى مخاطبة تلميذ واحد بالقدر الذى يبذلونه فى مخاطبة عدد كبير من التلاميذ ؟ وفوق هذا وذاك ، هل يمكن لانتباه أى تلميذ أن يظل مركزاً على شىء واحد دون أن يصيبه كلل أو ملل ؟ إن وسائل التنويع بالمدرسة بالطبع أكثر وأيسر (١ ، ٢ ، ١١) .

ومع ذلك لم يجهل كوينتليان أضرار الفصول المكتظة ؛ ولذلك فإنه ينصح خيار المدرسين بألا يرهقوا أنفسهم بتحمل عدد كبير من التلاميذ لا يستطيعون التحكم فيه ، فالمدرس يجب أن ينشىء علاقات طيبة مع تلاميذه ، وهذا لن يكون ميسوراً ، إذا كانت الفصول مزدحمة ؛ كما يجب أن ينظر المدرس إلى التدريس لا على أنه عبء ثقيل واجب الأداء ، بل

على أنه عمل ممتع جدير بالحب . ومع ذلك فإن أى مدرس ، مهما كانت درجة تذوقه للأدب بسيطة ، سيوجه بالطبع عناية خاصة لأى تلميذ يلمح فيه النجابة والاجتهاد مهما كان عدد التلاميذ فى فصله كبير ، حتى ولو كان الدافع جلب الشهرة والمجد للمدرس نفسه (١ ، ٢ ، ١٥ — ١٦) . وحتى على فرض أن كثرة عدد التلاميذ هو العيب الوحيد للمدارس ، فهل يجعلنا هذا ننسى فوائدها الجمة ؟ إن الكمال المطلق مستحيل تقريباً . وهنا يبدأ كوينتليان فى ذكر مزايا المدارس العامة :

« أولا التلميذ الذى يتعلم ليصبح خطيباً ، والذى سينفق معظم وقته وسط عامة الناس ، ينبغى أن يتعود منذ صباه أن يجابه الناس ولا يخجل من لقائهم . فليس من مصلحة الطفل أن يبقى بالمنزل ليتلقى تعليمه ، فإن مثل هذا التعليم قد يجعل الطفل معتزلا ، والمعتزل بعيد كل البعد عن أن يكون خطيباً ناجحاً . فلأنه قد تعلم فى ظلام العزلة ما كان ينبغى أن يتعلمه فى ضوء النهار ، فسوف يعشيه ضوء الشمس ، عندما يحين الوقت لجنى ثمار دراساته ، لأنه سيجدأن كل شىء جديد وغريب غير مألوف . وفوق ذلك ، تنشأ بالمدارس الصداقات ، التى تظل عراها متوطدة حتى سن الشيخوخة وكأنها مرتبطة برباط مقدس ... وأين سيتعلم الطفل ما يسمى سرعة البديهة ، إذا عزل عن المجتمع الذى يعيش فيه ؟ فى المنزل أيضاً لا يتعلم التلميذ إلا ما يلقى عليه ، ولكنه فى المدرسة يتعلم ما يلقى عليه وعلى غيره من الزملاء . إن العقل فى حاجة إلى إثارة دائمة ؛ وفى المنزل ، إما أن يفقد العقل حيويته ، وإما أن يمتلىء بالغرور ، فإن الشخص ، الذى لا يقارن نفسه بأى شخص آخر ، فإنه بالضروره سينسب لنفسه من القوة أكثر مما له . أما فى المدرسة فان التلميذ سيسمع المدرس يومياً يثنى على كثير من المجتهدين ، ويصحح كثيراً من الأخطاء ؛ وعند ما يؤنب زميل بالمدرسة ، سيكون ذلك رادعاً للآخرين ، وعندما يمدح المجد ، سيكون ذلك دافعاً لهم على الاجتهاد . كل هذه الأمور تثير العقل ؛ فإن التلميذ سيعتبرها مهانة اه ، لو تفوق عليه أحد أقرانه ، وسيعتبرها شرفاً كبيراً لو تفوق هو على من يكبرونه » (١ ، ٢ ، ١٨ — ٢٢) .

وهناك أيضاً مشكلة هامة قد ناقشها كوينتليان ، وهى مشكلة دراسة ميول الطالب وتوجيهه حسب هذه الميول . يبدو أن بعض النقاد المعاصرين له كانوا ينادون بضرورة ترك التلاميذ على أهوائهم يختارون الدراسات التى تلائمهم . ولكن كوينتليان ، وإن كان يعترف بأهمية موافقة الدراسة لميول الطالب الطبيعية ، فقد يناسب بعض الطلبة دراسة التاريخ ، والبعض الآخر دراسة القانون ، وقد يبرع آخرون فى قرض الشعر ، وآخرون لا يصلحون إلا لحرث الأرض وبذر الحب ، إلا أنه لا يوافق إطلاقاً على ترك التلاميذ على أهوائهم دون أى رقابة ، ودون الخضوع لمنهج دراسى منظم تحت إشراف المدرس وتوجيهه . وليس معنى ذلك أنه يحارب الميول الطبيعية ، وإنما معناه بكل بساطة أن ميول التلميذ الطبيعية يجب ألا يعوقها أى شئ إلا التنظيم والتهذيب والتشذيب ، وإذا كانت هناك ميول أخرى معطلة أو ناقصة يجب أن تنشط وتنمى لتصبح ذات فعالية . وإلا فلن يكون للتعليم ضرورة على الإطلاق لو كانت الميول الطبيعيـــة وحدها كافية بحالتها الفطرية . (٢ ، ٨ ، ١ — ١٠) . وبالإضافة إلى دراسة الاختلاف بين ميول الطالب من الناحية العلمية ، ينبغى على المدرس أيضاً أن يلاحظ سلوكهم وطباعهم ، فبعض الطلبة لاينتجون إلا بالضغط عليهم ، وبعضهم يحنق لمجرد إصدار الأوامر إليهم ؛ وقد يعوق التهديد تقدم البعض ، وقد لا يثير البعض الآخر ، والعمل المستمر قد يناسب البعض ، والبعض الآخر قد يناسبهم التركيز السريع . . . وهكذا . (١ ، ٣ ، ٦) وقد

ذهب كوينتليان فى هذا السبيل إلى حد أن نصح المدرسين بمراعاة الخلاف بين أعمار التلاميذ ، فلا يسمح للتلاميذ الصغار أن تجلس فى فصل واحد مع الكبار ، لاختلاف مشاربهم ونزعاتهم ، حتى لا يكون هناك أدنى خوف من احتمال إفساد أخلاق الصغار (٢ ، ٢ ، ١٤) وهكذا نرى أن التدريس فى نظر كوينتليان لا يخضع لطريقة محددة أو لمجموعة من القواعد الثابتة ، وإنما هو عبارة عن عملية ماهرة من عمليات التغير المستمر من جانب المدرس حسب الظروف والأحوال ، وذلك يستلزم مجهوداً شاقاً ومهارة فائقة من جانب المدرس . وليس معنى ذلك أن ليس للعلم أهمية ، بالعكس ، فمن الواضح أن كوينتليان إنما يقصد أن أهم مميزات المدرس الماهر سعة الاطلاع فى مادته ، وبراعة ماهرة فى طريقة اختيار الوسيلة المناسبة لمقتضى الحال .

إن كوينتليان يرفض رفضا تاما توقيع أى عقوبة بدنية على التلاميذ ، ويعنف بشدة أولئك المدرسين الغير جديرين باسمهم ، الذين يسيئون استعمال حقهم فى معاقبة تلاميذهم . كم هى عصرية وحديثة فكرة كوينتليان بأنه « لا ينبغى أن يسمح لأى إنسان بسلطة مطلقة على الأطفال وهم فى سن صغيرة لا يستطيعون معها مقاومة سوء استغلال هذه السلطة » (١٧،٣،١) والأسباب التى يسوقها لرفضه هذه القسوة ، كلها أسباب نفسية ومنطقية معقولة . فهى أولا عمل مخز ومهين لأى ولد حر ، ثانيا إذا كانت حالة التلميذ من السوء بحيث لا يمكن إصلاحها بتوبيخ رقيق ، فإن العقوبة البدنية ستجعله أسوأ مما هو ، ثالثا ليست العقوبة البدنية وسيلة عملية للإصلاح ، فقد يمكن ضرب التلميذ الصغير ليذاكر ، ولكن كيف يمكن التعامل معه عندما يصبح شابا عليه أن يواجه دراسات أكثر صعوبة ؟ وأخيراً عندما يضرب التلاميذ فإنهم يتألمون ويخافون ، والخوف والألم من أخطر الأشياء ، التى تترك أثراً سيئا على عقلية التلميذ وشخصيته . (١،٣،١٤) .

ومن ثم ليس « للعصا » مكان عند كوينتليان . وفى رأيه أنه لن يكون هناك أدنى ضرورة لاستعمال أى لون من ألوان العقوبة البدنية ، إذا كان المدرس حاذقاً ، وهنا يمدنا كوينتليان ببعض الوسائل ، التى استعملها هو فى العمل على تحسين أعمال تلاميذه . إذا كان عمل الطالب مليئا بالأخطاء بصورة غير مرضية ، فقد كان يشجعه ويستحثه على المحاولة مرة ثانية ، إذ فى استطاعته أن يعمل ما هو أفضل ؛ فلا شىء يجعل الدراسة شيئاً ممتعاً كالأمل . وإذا كان أحد الطلبة مثلا يميل إلى المبالغة فى استعمال المحسنات اللفظية فى أسلوبه ، فقد كان يشير إلى أنه سيأتى وقت ما لا يصبح فيه مثل هذا الأسلوب مناسباً ، وهكذا لا يستحوذ على الطالب الشعور بأنه بلغ الكمال (٢،٤،١٣–١٤) . وفوق ذلك ينبغى على المدرسين أن يضعوا نصب أعينهم دائماً أنه يجب عليهم ، عندما يتعاملون مع التلاميذ الصغار ، أن يبذلوا أقصى جهدهم لجعل التعليم شيقا وجذابا بقدر ما يستطيعون (١ ، ١ ، ٢٠ ، ٢٦) .

إن الترويح عن النفس ضرورى جداً فى رأى كوينتليان ، وخاصة عندما تعلم أن اليوم المدرسى كان طويلا ، فلا أحد يستطيع تحمل العمل المستمر ؛ وفى التعليم والدراسة يعتبر الترويح عن النفس أكثر أهمية . إذ لا يستطيع أحد إرغام عقله على العمل . ومن ثم فإن التلاميذ ، بعد يوم عطلة ، يصبحون أكثر نشاطا وحيوية وقابلية للتعليم . ولكن ينبغى أن يكون هذا بصورة محدودة معقولة ، وإلا جعل التلاميذ ينصرفون عن دراستهم لشدة ميلهم إلى الكسل واللعب ومن ثم فإن كوينتليان يسمح للتلاميذ ببعض الألعاب فاللعب فى رأيه دليل على حيوية الطفل ، والطفل المكتئب خامل الحركة لن يكون فى يوم ما متحمساً

لدراسته . وبعض الألعاب لها قيمة تعليمية للأولاد ، فمثلا سؤال كل منهم للآخر جميع ألوان الأسئلة سوف ينشط عقولهم . وفى الألعاب تظهر شخصية التلميذ وأخلاقه على الطبيعة ، وفى هذه الحالة يستطيع المدرس أن يعمل على إصلاح عيوبه ونقائصه فى الوقت المناسب (١ ، ٣ ، ٨ — ١٣) .

إن التلميذ المثالى ، عند كوينتليان ، ينبغى أن يكون كريم الخلق ، بالإضافة إلى تفوقه فى دراسته ، بل « إن الفضيلة أهم بكثير من التفوق فى الدراسة » (١ ، ٢ ، ٣) . مثل هذا الطالب المثالى « سوف يتعلم مايدرس له ، يتبع مدرسه ولا يسبقه . فإن النبوغ الذى يظهر قبل أوانه نادراً ما ينتج ثمارا طيبة . فإن مثل هؤلاء التلاميـــذ ، الذين يعملون الأمور البسيطة بسهولة ويندفعون دون تبصر بعرض أعمالهم دون أن يسألوا ، كمثل الحب الذى يبذر فوق سطح التربة فينبت قبل نضجه ، أو مثل بعض الحشائش التى تشبه نبات القمح تنمو صفراء قبل موعد الحصاد ولكنها فارغة دون ثمار . ومجهود مثل هؤلاء الطلبة تكون ثماره مؤقتة ، ولكن سرعان ما يتوقف تقدمهم ، ويزول إعجابنا بهم . إن الطالب الحسن هو الذى يشجعه الثناء ، ويسره التفوق ، ويبكيه الفشل » (١ ، ٣ ، ٣ ، ٦) ولكن أعظم ماقاله كوينتليان فى هذا قوله بأنه « ينبغى أن يحب التلاميذ مدرسيهم بقدر ما يحبون دراستهم ، وأن يعتبروهم كوالديهم . فإن مثل هذا الحب سيدفعهم إلى التقدم ، وإلى محاولة كسب رضاء مدرسهم المحبوب ، الذى لن يستمعوا إليه بسرور فحسب ، بل سيتنافسون فيما بينهم على محاولة التشبه به . سوف يقبلون على المدرسة بسرور أكثر ، وسيبتهجون كثيراً عندما يثنى عليهم ، وسيكون غضبهم أقل عنـــدما يصحح أخطاءهم ، وسيبذلون قصارى جهدهم ليجعلوا أنفسهم محبوبين لدى مدرسهم ، وذلك بتكريس أنفسهم للدراسة . فكما أن واجب المدرس أن يعلم ، فإن واجب التلميذ كذلك أن يتعلم ، أو على الأقل أن يظهر رغبته الأكيدة فى التعلم . فهذان الواجبان ينبغى أن يسيرا جنباً لجنب ، وإلا فشلا كلاهما » . (٢ ، ٩ ، ١ — ٣)

ولم يهمل كوينتليان أمر الموضوعين اللذين مازالا يشغلان عقل رجال التربية والتعليم فى عصرنا هذا ، أعنى قوة الذاكرة والمحاكاة . فهو يعتبرهما من أهم المميزات التى تبين قدر استعدادات التلميذ الطبيعية للتعلم . وقد كانت الذاكرة مهمة جداً فى العالم القديم وفى العصور الوسطى قبل اكتشاف الطباعة .

ويرى كوينتليان « أن الذاكرة الجيدة يجب أن تستقبل المعلومات بسهولة ، وأن تحتفظ بأمانة بما قد استقبلته » (١ ، ٣ ، ١) وقد تحقق كوينتليان من أنه بالرغم من أن الذاكرة يمكن أن تعتبر هبة من الطبيعة ، إلا أنه يمكن تقويتها وتنميتها ، ككل القدرات والإمكانيات الطبيعية الأخرى ، بالتمرين والتدريب . إن كل العلوم والمعارف سوف تذهب أدراج الرياح ، إذا كان كل ما نتعلمه يفر منا ؛ فقوة الذاكرة هى التى تجعلنا نسترجع الحقائق والمعلومات المتعـــددة المختزنة فى تلافيف المخ . وليس اعتباطاً أن سميت الذاكرة « كنز الفصاحة » "Thesaurus eloquentiæ". وقد لاحظ كوينتليان التطور النفسى للذاكرة فى قوله إنه « بينما نقول شيئاً ما ، لابد وأن نكون نفكر فى شئ آخر على وشك أن نقوله ؛ وحيث أن العقل يتطلع دائماً إلى الإمام ، فهو إذن فى بحث مستمر عن شئ بعيد ؛ والذاكرة ، التى يختزن فيها العقل بطريقة سرية عجيبة بكل ما يكتشف ، هى التى تلعب دور الوسيط وتمدنا بكل ما تسلمته من المخيلة (١ ، ٢ ، ٣) ؛

إن استخدام الذاكرة استخداماً مناسباً من أصعب المشاكل فى ميدان التربية والتعليم . وقد عرف كوينتليان هذه الحقيقة معرفة جيدة ، عند ما أبدى تعجبه من

أن المرء قد ينسى أحياناً أحداثاً حديثة العهد ، ومع ذلك قد يتذكر أحداثاً مضى عليها زمن بعيد ، وعندما قال « ماذا يستطيع المرء أن يقول عن حقيقة أن بعض الأشياء ، التى يكد المرء فى البحث عنها فى ذاكرته ، ترفض أحياناً أن تواتيه عندما يريدها ، ثم تأتى فجأة على غير توقع منه » (١١ ، ٢ ، ٦ — ٧) . لم يجد كوينتليان تفسيراً معقولا لمثل هذه الأسئلة . ولكنه يقرر أنه بالرغم من صعوبة التحقق من قوة الذاكرة ومعرفة إمكانياتها الخارقة ، فإنها تساعد الخطابة على الوصول إلى مكانتها الحقة ، لأنها تمد الخطيب لا بالأفكار فحسب بل بالألفاظ أيضاً ؛ كما أن الذاكرة القوية تكسب الخطيب الثقة وسرعة البديهة ، التى تعطى التأثير بأن كلماته ليست معدة من قبل بل هى وليدة وحى الساعة . (١١ ، ٢ ، ٢ ، ٧ — ٨ ، ٤٦)

وعلى هذا الأساس يمكن اعتبار الذاكرة موهبة يمكن إنماؤها وتقويتها . وتركيز العقل بلا شك له أهمية فى هذا الشأن (١١ ، ٢ ، ٩ — ١٠) . ودقة الملاحظة كذلك تساعد الذاكرة ، لأنها تثبت كثيراً من التفاصيل التى تنقش بعمق فى المخ . (١١، ٢، ١٧) ومع ذلك فإن أفضل وسيلة لتقوية الذاكرة ، كما يقول كوينتليان ، هى التدريب والعمل "exercitatio et labor" وحيث أن الإهمال يضعف الذاكرة ، فينبغى على الأطفال أن يحفظوا كل ما يمكنهم حفظه عن ظهر قلب منذ فجر حياتهم فى التعليم (١١ ، ٢ ، ٤٠ — ٤١) . وفى رأى كوينتليان أنه من الأفضل أن يبدأ التلميذ الصغير بحفظ الشعر (١١ ، ٢ ، ٤١) ، لأنه أسهل فى الحفظ من النثر (١١ ، ٢ ، ٣٩) نظراً للوزن والإيقاع ، ولأنه يجذب الأطفال أكثر من النثر (١ ، ١ ، ٣٦) وبالنسبة للطلبة من الشبان فإنه من الأفضل لهم أن يحفظوا عن ظهر قلب مقطوعات مختارة من مشاهير الخطباء والمؤرخين من أن يحفظوا موضوعاتهم هم ، (٢ ، ٧ ، ١ — ٢) ، فإن ترتيب الأفكار وبناء التراكيب الفنى لأعمال الكتاب العظام سيساعد على توجيه الذاكرة (١١ ، ٢ ، ٣٩) . وبالإضافة إلى هذا فإن الطلبة سيتعرفون على أحسن النماذج ، ومن ثم فإنهم باللاشعور يحاكون الأساليب التى نقشت فى ذاكرتهم ، وسيكون فى استطاعتهم أيضاً أن يقدموا من أقوال مختلفى الكتاب ما يريدون من الشواهد والاستدلالات والأسانيد التى تناسب مقتضى الحال ، وسوف يكون لهذا أهمية كبرى فيما بعد عندما يلعبون دور المدافع أو ممثل الاتهام (٢ ، ٧ ، ٣ — ٤) .

ويحذرنا كوينتليان من خطورة تنمية الذاكرة بمجرد وسائل الحفظ عن ظهر قلب بطريقة ميكانيكية ؛ بل إنه يعتبر التقسيم والترتيب المعقول مهمين جداً . (١١ ، ٢ ، ٢٧ — ٢٨ ، ٣٢) . ومع ذلك إذا كانت ذاكرة أى شخص ضعيفة إلى حد أن نسيان أية كلمة قد يسبب التردد والارتباك أو الصمت الكريه ، فمن العبث أن يربط مثل هذا الشخص نفسه بالكلمات حرفياً ؛ وأسلم طريقة لمثل هذا الشخص أن يستوعب عناصر الموضوع استيعاباً تاماً ، ويترك نفسه يتكلم بحرية ؛ ولكن هذه الطريقة لا تفيد عملياً إلا من يحسنون الكلام ارتجالا (١١ ، ٢ ، ٤٨ — ٤٩) .

وكوينتليان يلفت نظرنا أيضاً إلى أهمية استغلال الأذن مع العين . فمن رأيه أن المرء إذا أراد أن يحفظ شيئاً عن ظهر قلب وهو صامت ، فإن عقله سيكون عرضة لأن يكسل ، وقد تقتحمه أفكار أخرى . فينبغى إذن أن ينشط العقل بالصوت بحيث لا يكون مرتفعاً ولا مجرد دمدمة ؛ وفى هذه الحالة ستحصل الذاكرة على معونة مزدوجة فى القراءة ، من الرؤية بالعين والإصغاء بالأذن . (١١ ، ٢ ، ٣٣) .

وعند الكلام عن المحاكاة كوسيلة من وسائل التعليم ، ينبغى أن نذكر أن التعليم الرومانى منذ بدايته

قد ربط بين المحاكاة كوسيلة لتعليم التلاميذ الأخلاق الحميدة والسلوك الحسن ، وبين المحاكاة كوسيلة لتعليمهم القراءة والكتابة والكلام السليم . فإن المدرس ، عند ما يقرأ مع تلاميذه أعمال الكتاب العظام ، فإنه يرمى إلى هذين الهدفين ، أعنى إعطاءهم نماذج أدبية يحاكونها فى كتاباتهم ، وتبصيرهم فى نفس الوقت بما فى هذه الأعمال من نماذج أخلاقية يقتدون بها فى حياتهم المستقبلة . إن قيمة المحاكاة كوسيلة فعالة من وسائل تنمية إمكانيات التلميذ ، مهما كانت هذه الإمكانيات ، أمر معترف ومسلم به منذ أفلاطون . (قارن بروتاجوراس ٣٢٥ — ٣٢٦) . وكوينتليان ، أعظم رجال التربية فى عصره ، يؤكد أن كل التصرفات فى الحياة تقوم على أساس الرغبة فى عمل ما توافق عليه عند الآخرين ، وهذا هو السبب الذى يجعل الأطفال ينسخون أشكال الحروف التى يتعلمون كتابتها ، والموسيقيين يتبعون صوت أستاذهم ، والرسامين يبحثون عن النماذج فى أعمال أسلافهم ، والفلاحين يسيرون بالخبرة على نفس المنهج المتفق عليه فى الزراعة . والواقع ، كما لاحظ كوينتليان ، « أن الدراسات الأولية فى أى فرع من فروع المعرفة تعتمد إلى حد كبير على مستوى النماذج التى توضع أمام المتعلم » (١٠ ، ٢ ، ٢) .

ومع ذلك فإن كوينتليان كان يدرك إدراكا تاما أن المحاكاة وحدها لا تكفى فإن أعظم الإمكانيات التى تميز شخصا عن آخر ، كالعبقرية ، والقدرة على الخلق ، لا يمكن محاكاتها (١٠ ، ٢ ، ١٢) . وعلى ذلك فإن المحاكاة وسيلة واحدة من وسائل التعليم . ولكن إذا لم يفعل المرء أكثر من محاكاة أسلافه ، فلن يكون هناك تقدم . إن العبقرية بلا شك لا يمكن أن تقف عند حد المحاكاة ، فالرجل البدائى ، بالرغم من أنه لم يجد أمامه نماذج يحتذيها أو يتعلم منها ، قد صنع الكثير بمقدرته الفطرية ، وأورث أعقـابه حضارات عظيمة : فينبغى على الطالب إذن أن يجاهد ليعمل ما هو أفضل من النماذج التى يحذو حذوها ، فإذا لم يبزها فهو على الأقل سيكون فى مستواها . ثم إنه من الصعب ، نقل شىء عن الأصل نقلا مضبوطا ؛ ومن ثم فإنه من الأسهل أن يبتكر المرء شيئا جديداً ، من أن يعيد ما أنتجه الآخرون (١٠ ، ٢ ، ٩ ، ١٠) :

وحيث أن المحاكاة من أهم مميزات التعليم الرومانى منذ البداية ، فإن اختيار النماذج ، التى ينبغى محاكاتها ، كان من أهم المشاكل التى ناقشها مدرسو الأدب والخطابة . كان البعض يوصى بقراءة المؤلفات السهلة فى المدارس ، إذا ليس من العسير فهمها أو محاكاتها . لكن كوينتليان كان يدعو إلى ضرورة أن يقرأ التلاميذ من البداية أحسن المؤلفين (٢ ، ٥ ، ١٨ ، ١٩) إن تاريخ النقد الأدبى القديم كان عبارة عن محاولة دائمة للكشف عن أحسن النماذج الصالحة للمحاكاة . وقد شهد العالم الرومانى المعركة بين القديم والحديث ، وهى معركة ليست قاصرة على الرومان ، بصورة ليس لها نظير فى أى عالم آخر قديماً أو حديثاً وقد بلغت هذه المعركة ذروتها فى عصر أوغسطس ، ولم تتوقف على أيام كوينتليان . ولكن اهتمام كوينتليان الشديد بالإنتاج الأدبى جعله يرى ميزات معينة فى محاكاة كل من القديم والحديث (١ ، ٨ ، ٨ — ٩ ، ٢ ، ٥ ، ٢١ — ٢٦) .

وعلى أية حال ، سواء كانت النماذج قديمة أو حديثة ، ينبغى على المدرس أن يستحث تلاميذه على البحث عن أحسن مميزات نماذجهم ، وتجنب العيوب التى يقع فيها القدماء والمحدثون . كما يجب على كل طالب أن يختـار من النماذج ما يتناسب مع قوته واستعداده ؛ فهناك بعض النماذج التى لا يمكن لشخص ما محاكاتها ، إما لأنهـا فوق طاقته ، وإما لأنها لا تتناسب مع مزاجه وطبعه . والمحاكاة لا يصح أن

تقتصر على استعمال الألفاظ والأساليب ؛ بل ينبغى أن يلاحظ الطالب توافق نماذجـــه مع كل الظروف والأحوال ، وتنوع الوسائل المستخدمة ، والقدرة على البرهنة والتنفيذ ، والمهارة فى استمالة كل العواطف (١٠ ، ٢ ، ٢٧) .

إن المدرسين الأغريق والرومان ، الذين كانوا يستخدمون المحاكاة كوسيلة لتعليم تلاميذهم ، كانوا يقومون بعمل تحليل دقيق للنماذج التى يعرضونها عليهم ؛ والغرض من هذا التحليل إيقاف الطالب على ما فى هذه النماذج من جمال وقبح فى الأسلوب وبناء التراكيب . وقد أمدنا كوينتليان بصورة واضحة لإحدى المحاضرات المدرسية فى فصل من فصول مدرسة الخطابة به عدد من التلاميذ فقال : يقرأ التلاميذ على التوالى بصوت مرتفع ، ليتعلموا الطريقة الصحيحة للنطق السليم الواضح . عندئذ يشرح المدرس وقائع القضية المتصلة بالخطبة المعروضة على الطلبة كنموذج للدراسة ، لكى يفهموا ما يقرأون بوضوح أكثر . ثم يحلل المدرس الخطبة تحليلا دقيقاً ، ثم يبين الصنعة والمحسنات البلاغية التى استعملت فى كل جزء من أجزاء الخطبة . وقراءة الخطب الضعيفة أيضاً لها فائدتها ، إذ سيبين المدرس للطلبة ما فيها من نقص فى الذوق عند استخدام المحسنات البلاغية .

ولا ينبغى أن يقتصر واجب المدرس على هـــذا فحسب ، بل ينبغى أن يوجه إلى طلبته من حين لآخر بعض الأسئلة ، ليختبر قدرتهم ومعلوماتهم ، ومن ثم يتحاشون الإهمـــال ، وفى نفس الوقت يتدربون على النقد وعلى البحث والتنقيب عن المحاسن والعيوب بأنفسهم . (٢ ، ٥ ، ٦ — ١٣ ؛ قارن ١ ، ٨ ، ١٣ وما بعده ، حيث يمدنا بمحاضرة لمدرس الأدب)

لقد أبدى كوينتليان اهتماماً ملحوظاً بوسائل تعليم الأطفال القراءة والكتابة . فهو لا يوافق على الطريقة الميكانيكية التى كانت شائعة فى عصره ، وهى تعليم الأطفال أسماء الحروف بالترتيب قبل معرفة أشكالها ؛ فمثل هذه الطريقة تعوق معرفة الأطفال لها ، لو تغير نظام ترتيبها ؛ ولذلك فهو يرى أن تعليم الكتابة يجب أن تسير جنباً إلى جنب مع تعليم القراءة . (١ ، ١ ، ٢٤ — ٢٥) . ولكنه من ناحية أخرى يوافق على الطريقة التى كانت شائعة لتعليم الأطفال الكتابة ، وهى حفر أشكال الحروف على لوح من الشمع ليتمكن الأطفال من السير فيها بأقلامهم ، حتى يألفوا أشكالها وتتمرن عضلات أصابعهم وتتعود كتابتها كتابة صحيحة وبسرعة (١ ، ١ ، ٢٧) . وهو لا يوافق على الفكرة المعروفة ، وخاصة فى فصول الكبار ، بأن تحسين الخط أمر لا أهمية له ، ويصر على وجوب أن يتعلم الطفل من البداية حسن الكتابة بسرعة وبوضوح ، فالبطء فى الكتابة يعوق تسلسل الأفكار ، والخط غير الواضح لا تسهل قراءته (١ ، ١ ، ٢٨) .

ويبدو أن كوينتليان قد أدرك ما نسميه الآن « طريقة المقاطع » أى التعلم بطريقة تقسيم الكلمة إلى مقاطع ؛ فهو يؤكد أن المقاطع يجب أن تعلم للطفل بمنتهى الإتقان ، خشية أن يضل عند الكتابة . وأحسن طريقة لهذا هو تكرار المقاطع مرة بعد أخرى حتى تنطبع فى الذاكرة ، عندئذ يبدأ التلاميذ فى تكوين كلمات من المقاطع ، وجمل قصيرة من الكلمات . وهنا يحذرنا كوينتليان من السرعة فى القراءة ، خشية أن تكثر أخطاء التلميذ ، وكثرة التصحيح ، التى ستتبع ذلك، يمكن أن تفقده الثقة بنفسه (١ ، ١ ، ٣٠ — ٣٢) . أما السرعة فى القراءة فسوف يتعلمها الطفل فيما بعد وبالتدريج (١ ، ١ ، ٣٣) . ووضوح النطق أيضاً له أهمية كبيرة ، وأفضل وسيلة لهذا قراءة بعض التراكيب ، ذات المقاطع المتشابهة أو المتنافرة ، قراءة سريعة جداً (١ ، ١ ، ٣٧) .

ومشكلة التنقيط punctuation أيضاً لها أهمية بالغة ، وخاصة عند ما نعلم أن الإغريق والرومان لم يستعملوا فى كتاباتهم علامات التنقيط المعروفة لنا الآن . فالطفل يجب أن يتعلم من البداية متى يتوقف ، ومتى يرفع أو يخفض من صوته ، وكيف يلون صوته حسب معنى كل جملة ، ومتى يسرع من إيقاع إلقائه ومتى يقلل من هذه السرعة (١ ، ٨ ، ١ – ٣) .

ولم يهمل كوينتليان مشكلة الهجاء ؛ وقد كانت من المشاكل المحيرة فى عصره . فعند هجاء الكلمات المركبة ، هل يكتبها المرء حسب صوتها الأصلى أو حسب صوتها الجديد ؟ فمثلا الكلمة 'Tinuit' إذا أضيف إليها فى أولها المقطع ob فهل تكتب optinuit أو obtinuit ؟ وقد أعلن كوينتليان عن رأيه فى هذا الشأن لصالح الطريقة الصوتية ، فقال « إن هجاء الكلمات يجب أن يكون حسب نطقها ، ما لم يقتض العرف غير ذلك ؛ إذ ماذا يقول المرء بشأن بعض الكلمات التى يختلف نطقها عن هجائها ، مثل كلمة consul التى تنطق بدون الحرف n » (١ ، ٧ ، ٧ وما بعده) .

عندما يتم التلميذ مرحلة تعليمه الأولى ، بأن يتعلم القراءة والكتابة ومبادىء الحساب ، كان يذهب إلى مدرس الأدب grammaticus ليتم مرحلة تعليمه الثانية . وبالرغم من أن دراسة الأدب كانت الأساس الذى تقوم عليه الدراسة فى هذه المرحلة من مراحل التعليم ، إلا أنه لم يكن المادة الوحيدة التى تدرس : فبالإضافة إلى دراسة الأدب بفرعيه – نحو وأدب صرف – كانت الموسيقى والرياضة والفلك والفلسفة والخطابة ضمن مناهج التعليم ، التى كانت تختلف إلى حد ما من مدرس لآخر ؛ فلم يكن هناك مقررات موحدة أو امتحانات أو أى تدخل من جانب الدولة . وكانت هذه المواد التى تدرس فى تلك المرحلة يطلق عليها اسم artes liberales أى الفنون الراقية .

ويجب أن نعرف من البداية أن التخصص ، بمفهومه الحاضر ، لم يكن معروفاً عند الإغريق وبالتالى عند الرومان . ومن ثم لم يكن الغرض من دراسة هذه المواد إلا إيقاف التلاميذ على المعلومات العامة ، التى يمكن أن تساعدهم على فهم ما يدرس لهم من نصوص أدبية وكان معظمها من الشعر ، والتى يمكن أن تفيدهم فى حياتهم المستقبلة .

كانت وظيفة مدرس الأدب تعليم التلاميذ الكلام والكتابة فى لغة صحيحة ، وشرح الصعوبات اللغوية ، وتفسير الإشارات التاريخية والفلسفية الواردة فى النصوص (١ ، ٤ ، ٤) ، ومعالجة الأوزان المختلفة ، والتعليق على الكتاب (١ ، ٨ ، ١٣) ويمكن تقسيم هذه الدراسة إلى قسمين رئيسيين : الأول فن الكلام والكتابة الصحيحة (recte loquendi scientia et scribendi ratio) ، والثانى تفسير الشعراء (poetarum enarratio) يسبقه قراءة سليمة (emendata lectio) ويصحبه نقد أدبى (iudicium) . وكان القسم الأول يسمى أحياناً methodice ، ويعالج الجانب الشكلى من الأدب أى القواعد والإنشاء ، وكان القسم الثانى يسمى historice ويعالج الجانب الموضوعى من الأدب . وبالرغم من أنه لم يكن هناك حد فاصل بين دراسة الشكل والمضمون فى المدارس الرومانية ، إلا أننا نلمح التمييز الموجود الآن بين دراسة قواعد اللغة وأدب اللغة .

لم تكن الدراسة عند مدرس الأدب قاصرة على المحاضرات الشفوية التى كان يلقيها المدرس ، بل كانت تمرينات الإنشاء التى يكتبها التلاميذ تلعب دوراً هاماً فى تلك المرحلة من التعليم . وكانت هذه التمرينات تسمى progymnasmata ، وهى عبارة عن سلسلة من التمرينات المتدرجة فى الإنشاء تبدأ من البسيط إلى إلى ما هو أصعب ؛ والغرض منها تأهيل وإعداد

الطالب للتمرينات الأكثر صعوبة ، التى سوف يتدرب عليها عند مدرس الخطابة وهى ما تسمى declamationes . وقد أمدنا كوينتليان بمعلومات تفصيلية عن كثير من هذه التمرينات ، وأشار إلى أن الثلاثة أنواع الأولى منها هى وحدها التى تخص مدرس الأدب ، أما الأنواع الباقيـة فهى تخص مدرس الخطابة ؛ ولكن نظراً لإهمال مدرس الخطابة تدريس هذه التمرينات ، فقد أصبحت كلها من اختصاص مدرس الأدب (١ ، ٩ ، ٦) :

١ ــ الحكاية (fabella) ، وفيها يتعلم التلميذ كيف يحكى ويكتب بأسلوبه الخاص فى لغة سليمة حكاية مما قرأ . وفى هذا التمرين يتعلم التلميذ أولا كيف يحلل كل بيت من الشعر ثم يضع المعنى فى كلمات أخرى (١ ، ٩ ، ٢) .

٢ ــ الحكم والأقوال المـأثورة (sententia et chria) وهى تمرين فى التعليق على بعض الحكم والأقوال المأثورة (١ ، ٩ ، ٣ ــ ٥) .

٣ ــ القصة القصيرة (narratiocula) (١، ٩، ٩)

٤ ــ القصص (narratio (٢ ، ٤ ، ٢ ــ ١٧)

٥ ــ الدحض والإثبـات (opus destruendi confirmandique) وفيه يتناول التلميذ أى موضوع يحتمل الصـدق والكذب ، ويؤكده أو ينفيه (٢ ، ٤ ، ١٨ ــ ١٩)

٦ ــ المدح والذم ، وفى هذا التمرين يتعلم التلميذ كيف يمدح (landare) شيئاً أو شخصاً ما لأنه فاضل ، أو يذم (vituperare) شيئاً أو شخصاً ما لأنه سئ (٢ ، ٤ ، ٢٠)

٧ ــ الموضوعات العامة (communes loci) ، وهى تشبه المدح والذم ، ووجه الخلاف بينهما أنها تتناول بالمدح والذم الفضائل والرذائل نفسها (٢ ، ٤ ، ٢٢)

٨ ــ المقارنة (exercitatio comparationis) ، وهى لا تعتبر تمريناً جديداً ، فهى إما متصلة بالمدح والذم ، وإما متصلة بالموضوعات العامة (٢، ٤، ٢١) .

٩ ــ التمثيل (prosopopœïa) وفيه يكتب التلميذ موضوعاً على لسان إحدى الشخصيات التاريخية أو الأسطورية . وهذا التمرين مفيد جداً للطالب الذى سيصبح خطيباً ؛ فسوف يدربه على المبادىء العامة لمراعاة مقتضى الحال (٣ ، ٨ ، ٤٩ ــ ٥١) .

١٠ ــ الوصف وقد ناقشه كوينتليان عند الكلام عن الصور البلاغية تحت اسم enargia (٨ ، ٣ ، ٦١ وما بعده) وفائدة هذا التمرين أنه يمكن الطالب من وضع الحقائق أمام أعين سامعيه فى صورة حية واضحة .

١١ ــ المقال (Thesis) ، وفى هذا التمرين يكتب الطالب فى مشكلة عامة (quaestio infinita) مثل « هل ينبغى أن يتزوج الرجل » ؟ أو « أيهما أفضل ، الحياة فى الريف أو فى المدينة ؟ » (٢ ، ٤ ، ٢٤ ــ ٢٥) .

١٢ ــ وأخيراً مدح وذم القوانين (legum laus ac vituperatio) وقد أعطى كوينتليان أهمية كبرى لهذا التمرين (٢ ، ٤ ، ٣٣ وما بعده) نظراً لفائدته العظيمة للطالب ، سواء فى مدرسة الخطابة أو فى المحاكم ، وذلك عندما يضطر إلى مهاجمة بعض القوانين التى تتعارض مع مصلحة قضيته ، أو عند ما يدافع عن بعضها الآخر التى تدعم وجهة نظره .

كانت الخطابة أيام كوينتليان لها ثلاثة مظاهر ، نظرى وتعليمى وعملى . وهذه المظاهر الثلاثة تتمثل

فى عمل كوينتليان Institutio Oratoria ، بالرغم من أن الناحية العملية لم تعالج بالتفصيل .

فيما يخص الناحية النظرية للخطابة ، فقد سار كوينتليان على النهج الذى اتبعه أسلافه من قبل وقبِل كل النظريات والتقسيمات التقليدية التى كانت معروفة فى عصره (٣ ، ٣ ، ١ وما بعده) . وهذه الناحية النظرية كانت تعتبر الأساس الذى لا يمكن أن يستغنى عنه الطالب ، فهى كقواعد اللغة التى كان لابد من تعلمها عند مدرس الأدب . وقد كان الطلبة يتعلمون هذه النظريات من كتب وضعت خصيصاً لهذا الغرض ، كما أنها كانت موضوع محاضرات شفوية يلقيها مدرسو الخطابة كجزء أساسى من برنامج الدراسة (قارن ١ ، م ، ٧) .

وفيما يخص الناحية التعليمية ، فقد قبل كوينتليان أيضاً النظام التقليدى الذى كان قائماً فى عصره ، حيث كانت وظيفة مدرس الخطابة تتركز فى إلقاء محاضرات على نظريات الخطابة ، وفى تعليم الطلبة كيفية تطبيق ما أخذوه من نظريات بتمرينهم على ما يسمى declamatio بنوعيه controversia, suasoria . هذا إلى جانب الاستمرار فى دراسة النصوص الأدبية ، وإن كانت النصوص هنا فى الغالب نصوصاً نثرية من التاريخ والخطابة (٢ ، ٤ ، ٢) . لم يكن الغرض من قراءة النصوص فى هذه المرحلة تمكين الطالب من متابعة الكلمة المكتوبة فى سهولة ووضوح ، وإنما الغرض منها توضيح طريقة كل خطيب فى المناقشات وترتيب هذه المناقشات واختيار الألفاظ المتاسبة لإقناع نوع معين من المستمعين (٢ ، ٥ ، ٦ وما بعده) .

ومهما كانت قيمة النظريات ، فلا شىء يعدل التطبيقات العملية بالتمرين على يسمى declamatio . كان الطلبة يتمرنون أولا على الـ suasoria لأنها كانت تعتبر أسهل من الـ controversia . وكانت هذه الـ suasoria عبارة عن خطاب يتوجه به الطالب إلى شخصية أو جماعة معينة يدعو فيه إلى عمل أو تجنب شىء معين فى ظروف معينة . وهذا التمرين كان يتطلب من الطالب أن يكتب مايسمى prosopopœïa ، أعنى خطاباً يتضمن الكلمات التى يمكن أن يوجهها شخص معين إلى شخص أو جماعة معينة تحت ظروف معينة طبقاً لقانون الاحتمال والضرورة . (٣ ، ٨ ، ٤٤ وما بعده) . وقد ذكر كوينتليان بعض عناوين لمثل هذه الموضوعات : هل ينبغى أن يصر قيصر على غزو جرمانيا حتى عندما شاهد كل جنوده من حوله يكتبون وصاياهم ؟ (٣ ، ٨ ، ١٩) هل ينبغى أن يقبل نوما Numa العرش عندما عرضه عليه الرومان ؟ (٧ ، ١ ، ٢٤) .

ثم تأتى مرحلة التمرين على الـ controversia وهى آخر مرحلة من مراحل تعليم الخطابة . وهـــذا التمرين كان يتمثل فى تدريب الطلبة على كل أنواع الموضوعات القضائية التى تشبه تماما الموضوعات التى كانت تناقش فى المحاكم الرومانية . كان مدرس الخطابة فى هذا التمرين يبدأ باقتراح موضوع قضية ما على الطلبة ، وقبل أن يبدأوا فى معالجته ، كان المدرس يوضح لهم الخطوط العريضة للموضوع (٧ ، ٣ ، ٣٠ — ٣٤) ، ثم يبدأ الطلبة فى معالجة الموضوع كل حسب ميوله وإمكانياته . كان يترك للطلبة قدر كبير من الحرية فى اختيار الزاوية التى يعالجون منها الموضوع . وكان المدرس فى العادة يرى كتابات طلبته لتصحيحها أو لتقديم بعض المقترحات . وبعد التنقيح كان الطلبة يحفظون خطبهم عن ظهر

قلب ويلقونها أمام زملائهم فى حضرة المدرس الذى يقوم بنقدها من كل الوجوه (٢ ، ٢ ، ٩ – ١٣) وأهم النصائح التى قدمها كوينتليان لجعل هذا التمرين ذا فائدة عظيمة مايلى :

١ – موضوعات القضايا المقترحة للتمرين يجب أن تكون واقعية مما يحدث فى الحياة بقدر المستطاع كما يجب على الطالب عند إعداده لخطبته أن يسير على نهج ما يحدث فى المحاكم (٢ ، ١٠ ، ٤) .

٢ – يجب أن تذكر أسماء للشخصيات التى تلعب دوراً فى الموضوع ، وأن تستخدم لغة الحياة اليومية وأن تقدم بعض الدعايات أو الفكاهات من حين لآخر (٢ ، ١٠ ، ٩) .

٣ – أن يكون استعمال المحسنات البديعية والصور البلاغية متفقاً مع طبيعة الموضوع ومستمدا من سياق سير الأحداث ، لا لمجرد عرضها فحسب كنوع من الاستعراض (٢ ، ٤ ، ٣٠ – ٣١) .

وبمراعاة هذه النصائح ، كما يقول كوينتليان ، لن يكون هناك أى خلاف بين هذا التمرين وبين الخطب الحقيقية التى تلقى فى المحاكم (٢ ، ١٠ ، ٩) . ومن ثم فإن الطالب الرومانى ، وقد كان يتدرب يومياً على مناقشة أى جانب من كل أنواع القضايا المختلفة ، كان يدخل المحاكم الرومانية وهومزود بكل مايساعده على القيام بدور الدفاع أو النيابة . ولم تكن مدرسة الخطابة تؤهل الطالب ليكون محامياً فحسب ، بل ليكون أيضاً أحد الموظفين المسئولين عن إدارة عجلة الامبراطورية الرومانية المترامية الأطراف ، أو ليكون أحد رجال الأدب الذين كانوا يحتلون مكانة بارزة فى ذلك العصر المزدهر .